

الفصل السادس عشر

الفلسفة

يبدو أن الفلسفة كانت من المعاني التي استرعت نظر الانسان البدائي مختلطة بالمعرفة إجمالاً ، ذلك أنه كان دائم النظر الى الطبيعة ، الى السماء والارض والماء ، راغباً في الوقوف على سر ما يشهد وتعليل حقيقة ما يحس .

وليس بعيد ولا بعجيب أن يكون رئيس الجماعة أو زعيم القبيلة أو رب الاسرة هو ذاته الكاهن والعالم والطبيب والفيلسوف والعراف والساحر وقائد الجند والشرطة بل الملك . وكلما اقتربنا من عصر التاريخ ، وضح التخصص في هذه الاعمال وأصبح لكل منها أشخاص ينهضون باعبائها .

وقد اختلف استعمال لفظ «الفلسفة» ومعناها حسب الحكمة - « تبعاً للبلاد والعصور والعلماء . فقد انتقلت فكرة «الفلسفة» نفسها في اليونان من فكرة المعرفة والثقافة العامة ، أي من أن الفيلسوف هو من يعرف أى شيء أو كل شيء ، إلى علم معين ، فعند «هيرودوت وثيكيديس» أن فكرة الفلسفة تتبع المعرفة . أما في كتابات «أفلاطون» فهناك فرق بين الرجل الحكيم ومحب الحكمة . وعند «أفلاطون» أن الفيلسوف هو من يدرك أساس الاشياء وحقيقتها على تقيض من لا يعني إلا بالظواهر ومظاهر الحس . فالفلاسفة ، عند أفلاطون ، هم من يستطيعون ادراك الابدئ والثابت ومن يحبون كل شيء له وجود حقيقي

وقد ذكر «أرسطو» ، رجل دائرة المعارف التاريخية القديمة ، حدود النظم الفلسفية . وكان «أرسطو» هو منشئ علوم المنطق والاخلاق والذوق والجمال

الفلسفة هي معرفة أسرار الكون العام وادراك نوااميس التغيير المستمر فيه وفهم أصل نشأته ونهاية مصيره أو قل هي معرفة الظواهر الطبيعية المختلفة وأسباب نشأتها وتحولها من كون إلى فساد ومن فساد إلى كون ، والوقوف على ما وراء تلك الظواهر من الازل إلى الابد . وشرط هذه المعرفة إنما هو التحرير الفكري من التقاليد القديمة والاقتداء بالعادات الموروثة والاعتماد على قوانين الديانات القائمة بحيث يكون هذا المجهود الفلسفي الحكيم راجعاً للعقل البشري الحر الطليق كما أدركه سقراط وأفلاطون وأرسطو وديكارت وكانت واسبنسر . على أن الفلسفة قد تدرجت في معانٍ وإطلاقات كثيرة في حدود التعريف المتقدم . وكان هذا التدرج في معانيها وإطلاقاتها المختلفة تابعاً للتدرج في الموضوعات الرئيسية التي اشتغلت بها ولا تتقارن بعنايتها الكبرى من موضوع إلى موضوع إلى أن وصلت أخيراً ، وبعد استقلال العلوم عنها ، إلى دائرة بعينها من التفكير ، هي دائرة التفكير فيما أنتجته العلوم الطبيعية حسب مهمة كل واحد منها في حدود موضوعه وبطريقته الخاصة به في البحث ، بأن تأخذ الفلسفة تلك المجهودات العلمية العامة وتجمعها وتؤلف منها مجتمعة ، معرفة عامة تبحث بها في حدود ما وراء الطبيعة بحثاً يصور للعقل فهم اللاهوائية والديمومة من الازل وما فيه إلى الابد وما سيصير إليه ، وما بينهما من تعاقب في عالم الحدوث وتغيير مستمر في ظواهره بحكم الكون والفساد أو الوجود والعدم . وفي تلك الدائرة الخاصة والنقطة العويصة ، وبذلك الطريقة المذكورة تبحث الفلسفة بحثها الفني الاصطلاحي تاركة الحكمة الادبية الاجتماعية تأخذ طريقها محدودة في الادب العام وفي فنها المامي المعروف بعلم الاخلاق بعد أن كانت في هذا الفن فرعاً من فروع الفلسفة « أو الحكمة الفنية الاصطلاحية » ، وباستقلال العلوم عنها استقل أيضاً علم الاخلاق أو الحكمة الاجتماعية بما فيها من مآثور الآداب

نشأت الفلسفة في اليونان في القرن السابع قبل الميلاد. ولئن كانت الامم الشرقية القديمة قد أنتجت مجهوداً حكيماً فنيماً يذكر في تاريخ الفلسفة إلا أن هذا المجهود قد ارتبط عند مجموع هاتيك الامم بالدين ولم ينفصل عن دائرته وحدوده. واليونان، وإن كانوا قد اتصلوا بهذا المجهود الفلسفي القديم ووقفوا عليه، وعلى الاخص ما هو مأثور من ذلك عن قدماء المصريين، غير أنهم ما بنوا تفكيرهم الفلسفي على هذا المجهود الاول المكتنف بسياج الدين بل أهملوا هذا السياج إهمالاً تاماً، ومنحوا العقل البشري حريته الكاملة، وابتدأوا يفكرون تفكيرهم الفلسفي بفكر حر طليق من أى تقليد أو عادة أو أى تأثير للدين. ومن أجل هذا كانت الفلسفة بذت الفكر اليوناني الحر، وهديته، التي لا تقوم مطلقاً، الى الانسانية. غير أن وميض الفلسفة قد ظهر عند «لأوتسه» الفيلسوف الصيني الكبير، وكان هذا الوميض عند لأوتسه المذكور أظهر وأوضح من وميضها. بل أنها ابتدأت به عند «تاليس» الملطي اليوناني المعروف بأبي الفلسفة الاول.

صارت الحكمة الهندية بعد اجتياز الدور الارسطوري الذي نشأت عنه، وبعد وصولها الى دور مذاهب البراهمة الفلسفية التصوفية، حكمة دينية لا تقل عن مثيلتها، الحكمة الفلسفية الدينية التي ابتدأت عند اليونان قبيل المسيح، واستمرت نحو ثمانية عشر قرناً الى عهد الفلسفة الحديثة.

وعن الفلسفة الدينية الهندية تفرعت عدة مدارس ومذاهب فلسفية أخرى أساسها الفكر الحر والعقل الطليق، المذهب المادى الجاحد الذي كان من أثر العقل الحر والفكر الطليق. على أن حرية الفكر الباحث عند الهنود - وهى سهلة فى دوائر الجحود - لم تقف عند هذا الحد بل انتقلت الى ما هو فى دوائر الايمان الدينى واستبعدت منه النظر فيما وراء الطبيعة، وكونت لها نظاماً اجتماعياً أو دينياً حراً يعتمد على الفضيلة لا على وحي أو رغبة له مثل الدين البوذى

لهذا كانت الفلسفة اليونانية مشتركة مع الحكمة الهندية مع مذهب لأوتسه
الصيني في التفكير الطليق

والفلسفة اليونانية - الي هذا - تنفرد عن الفلسفة الهندية في أنها، وهي تتفهم
في الوجود في ظواهره وأسراره ، تعتمد الي وضع القواعد الثابتة والنظريات
المبرهنة والاحكام المسماة كأساس راسخ للبحث السكلي في المسائل العامة والنتائج
الشاملة ، فتكونت ، بهذه الطريقة ، الفلسفة الحرة اليونانية ومعها مبادئ علمية
ما كانت معروفة من قبل بل وضعها العقل اليوناني وضعاً. ولقد نمت هذه المبادئ
العامة شيئاً فشيئاً حتى صارت علوماً مدونة ومبوبة لكل واحد منها اسمه الخاص
به واستقلاله المنفرد به في موضوعه ومسائله وطريقة البحث فيه . وللمعلم الأول
يرجع الفضل الكبير في ذلك. هذا ولا جدال في أن الفلسفة اليونانية - وهي ينبوع
فياض قد اتصلت به كل الامم المفكرة واغترفت منه - كانت الحلقة الاولى في
التاريخ الفلسفي التي نشأت عنها كل علاقاته المحكمة الاتصال

ثم ان جميع العلوم الانسانية علي اتساعها الآن يرجع ، في أصل نشأتها، الي
البذور العامة الفلسفية الاولى التي نشأت في حجر الفلسفة اليونانية . هذا وما يزال
الذوق الادبي الحاكم في الناس حتى الآن يستمد روحه الاقوى من الذوق
الادبي اليوناني الذي انبعثت عنه الفلسفة اليونانية

فلسفة سقراط

عند الفلاسفة المتأخرين أمثال تسار وبترو أن سقراط يعد المؤسس
الحقيقي لعلم الاخلاق الذي مهد له من سبقه من الشعراء والحكماء والفلاسفة
بعبارة قوية وتعبيرات دقيقة استمدوها من تجاربهم في الحياة . وفي سبيل
الرد على اعتراضات السوفسطائيين وإعداد العقائد والتقاليد ، اضطر سقراط

إلى تكوين علم غايته إرضاء مطالب العقل والعقائد القديمة وموضوع هذا العلم « تحديد الماهيات » أو قل إنه تكوين آراء عامة تحصل من الاستقراء وذلك بانتقاله من الجزئيات إلى الطبائع العامة أو الماهيات الكلية التي يعدها سقراط موضوع العلم والمعاني العملية والمسائل الإنسانية فكان في أفعاله وفي حياته الاخلاقية هو موضوع تفكيره ، يقول ا كسانوفون : إن سقراط كان يرمى إلى تحديد ماهية جميع الموجودات . لقد عرف سقراط العدالة بأنها قوانين ثابتة ، والتقوى بأنها تقديم ما للآلهة من الاحترام إليها غير أن هذا التعريف لا يحمل طابعاً عاماً . لقد كانت المحاورات المعروفة بالسقراطية هي التي تؤرخ شباب أفلاطون وتمتاز بخلوها من أي أثر لنظرية المثل فهي تبين أن الفيلسوف يناقش في دقة بعض التعاريف ، ولكنه لا يخرج منها بنتيجة مطلقاً فان لا شيز يفرض بعض التعاريف عن الشجاعة ، ولكنه يرفضها كلها . وهذا ما نراه كذلك في هيبياس الاصفري بعض التعاريف الخاصة بالجمال . وفي الجملة كانت جميع هذه المحاولات نقدية وحسب . بل إن بروتاغوراس يترك كذلك بعض المسائل معلقة . بل إن في تيتاوس حيث يتجاوز أفلاطون آراء أستاذه نرى النتيجة سالبة دائماً . هذا ولم يذكر أرسطو أمثلة لتعاريف وضعها سقراط ، مع أنه يذكر أن سقراط حاول أن يضع تعاريف عامة إلا أنه لا يذكر هل وفق سقراط في ذلك أم لم يوفق . وعلى الخصوص لم يظهر لنا كيف وفق في ذلك . ويبدو من كل هذا أنه إذا كان سقراط قد أدرك ما يجب أن يكون عليه العلم ، إلا أنه لم يوفق في تحقيق الفكرة التي وضعها له ، فحدد موضوع العلم تحديداً تاماً ولم يستطع تحديد مضمونه . ويبدو أن سقراط نفسه كان يشعر بعدم قدرته على تحقيق العلم كما كان يدركه . إذ أنه بحث عن السبب الذي دعا كاهنه دلف إلى القول بأنه أعلم الناس ، فادرك أنه أكثر من غيره علماً ، غير أنه ظهر أسمى وأقدر منهم جميعاً في أنه لا يدعى علم ما يجله . وكثيراً ما كان يردد سقراط أن أحسن

ما يعامه هو أنه لا يعلم شيئاً . ويذكر في تيتاوس في كلماته الخاصة بأنه غير كف لتوليد أية معرفة (تيتاوس ١٥٩٧) . وطبقاً للتعريف المشهور لتوليد المذكور في هذه المحاوره يبين منهج سقراط من بحث أفكار غيره أي التعاريف التي يذكرونها ، لا أن يضع هو أفكاراً وتعاريف . ويقول سقراط إن كل ما يعمل هو إيقاع غيره في الشك والتناقض . وفي المحاورات المختلفة يرفض أن يضع هو نفسه أي مذهب ، واكتفى بنقد مذاهب سواه . وكان يرفض دائماً الخضوع الي مراحل السؤال التي كان هو نفسه يخضع لها محدثيه . ويقول أرسطو إن سقراط كان يسأل واسكنه لم يكن يجيب

السوفسطائيون .

كلمة يونانية الأصل ومعناها حكيم أو مفكر . ولكن الناس يطلقونها على من يكابر ويغالط في نقاشه وفي اليونان (٤٥٠ — ٤٠٠ ق . م) ظهر جماعة من الفلاسفة أطلق عليهم اسم السوفسطائيين أي الحكماء . وكانت مهمتهم أن ينبشوا في أرجاء اليونان ليعلموا الشبان الحكمة ، وينبهوهم الي الحرية . وقد أداهم البحث في تعليم الشبان وتثقيفهم إلى البحث في أصول الاخلاق ، وقواعد الدين ، فجاءوا فيها بأراء جديدة تركت أثراً ظاهراً في تاريخ الفلسفة . وثار عليهم لهذا كثير من الفلاسفة ، منهم افلاطون الذي انتقد آراءهم انتقاداً شديداً .

و كان خصومهم يتهمونهم بالتلاعب بالالفاظ ، فيلبسون الباطل ثوب الحق

الفلاسفة

نذكر هنا أسماء الفلاسفة الذين عرفهم التاريخ لأنهم كانوا على رأس من
محدثوا الحياة الأولى ، موردن تاريخ أعمارهم :
قبل الميلاد

لوسبديوس ٤٥٠ ، اناكساغوراس ٥٠٠-٤٢٨ ، السفسطائيون ٥٠٠-٤٥٠
بارمنيدس ٥٣٠-٤٦٥ ، هيرقليطس ٥٥٠-٤٧٥ ، ديموقريطس ٤٦٠-٣٦٠
أمبيروفليس ٤٩٠-٤٣٠ ، سقراط ٤٦٩-٣٩٩ - زينوالالباني ٤٥٠ ، أريستوبس
٤٣٥-٣٥٦ ، أفلاطون ٤٣٧-٣٤٧ ، أنتيشتينيس ٤٤٠-٣٧٠ ، ديوجينس
٤١٢-٣٢٣ ، اريسطوطاليس ٣٨٤-٣٢٢ ، أبيقورس ٣٤٢-٢٧٠ ،
زينون السكبي ٣٣٠-٢٦٤ ، لوكريتوس ٩٥-٤٥

اللاهوت المسيحي بعد الميلاد

اييكنانوس ٥٠-١٢٥ ، مرقس أوريليوس ١٢١-١٨٠ ، توما الاكويني
٢٢٥-٢٧٤ ، فرنسيس باكن ١٥٦١-١٦٢١ ، برونو ١٥٤٩-١٦٠٠ ،
دي كارت ١٥٦٥-١٦٥٠ ، هوبس ١٥٨٨-١٦٧٩ ، لوك ١٦٣٢-١٧٠٤ ،
سينيوزا ١٦٢٢-١٦٧٧ ، لينتز ١٦٢٦-١٧١٦ ، فولتير ١٦٩٤-١٧٧٨ ،
باركلي ١٦٨٥-١٧٥٢ ، كنديلاك ١٧٤٥-١٧٨٠ ، هيوم ١٧١١-١٧٧٦ ،
كنت ١٧٢٥-١٨٠٤ ، كندورسي ١٧٤٥-١٧٩٤ ، فخت ١٧٦٢-١٨١٤ ،
شيلنغ ١٧٧٥-١٨٥٤ ، أوغست كونت ١٧٩٨-١٨٥٠ ، هيغل ١٧٧٠-١٨٣٠ ،
شوبنهاور ١٧٨٨-١٨٦٠ ، چون ستورات ميل ١٨٠٦-١٨٧٥ ، أرلست رينان
١٨٢٢-١٨٩٤ ، سبنسر ١٨٠٦-١٨٧٣ ، نيتشه ١٨٤٤-١٩٠٠ ، سنتايانا
١٨٦٣ ، راسيل ١٨٧٢ ، ديوي ١٨٥٩ ، وليم جيمس ١٨٤٢-١٩١٢ ،
أويكن ١٨٤٦-١٩٢٦ ، كروس ١٨٦٦ ، برغن ١٨٥٩